الأمانة العامة للأوقاف ـ دولة الكويت

تحياتي القلبية وبعد

أزجيكم عاطر أشواقي وتحياتي، وأنتهز الفرصة لأعود وأزف كامل تقديري للأخوة الذين شاركوا في ندوة الوقف التي انعقدت في بيروت بتاريخ ٢٠٠١/١٠/٦، وأعلمكم أنه وصلت إلي هديتكم العطرة ألا وهي العدد الأول من مجلة "أوقاف"، وشكرت الله تعالى على ذلك، وشكرتكم على ما بذلتموه وستبذلونه من جهد في سبيل إخراج هذه المجلة في ثوب نضير قشيب.

ولقد قررت بعون الله تعالى أن أقرأ بشوق كافة أعداد هذه المجلة بعد أن توطدت تلك الصلة الروحية الخاصة بيني وبين الوقف، كما قررت أن أساهم في رفدكم ببعض المقالات، ووجدت أن أول ما يجب أن يكتبه المرء في مسألة الروح التي يصدر عنها الوقف باعتبارها الرشيم الذي تنبثق منها حياة هذا الكائن العظيم.

لهذا السبب أرسل لكم مقالا موسوما بعنوان: "التأسيس الإيماني العقيدي للوقف (ومسألة حق الروح في الإسلام)" راجيا النظر بأمر نشرها في مجلتكم الغراء، مع التنويه بأنني وجدت أنه من اللازم التعريف بالوقف أخلاقيا وروحيا ووجدانيا، قبل التعريف به من الناحية الصياغية التقنوية الفنية.

د. برهان زريق

العنوان: الجمهورية العربية السورية ـ اللاذقية ـ ص ب : ١٠٧٥

التأسيس الإيماني العقيدي للوقف (ومسألة حق الروح في الإسلام)

قد نسهب الحديث في هذا البحث، لكن مبرر عملنا هذا أن رضوان الله وإرضائه هما البوصلة الحية التي تحرك جماع حبات قلب الواقف ونبضات فؤاده، وبذلك يغدو هذا الرضوان لب الوقف وجوهره ولؤلؤته اليتيمة، ومنتهى أمره، ومرمى قصده، وليس عجباً إذن أن يستحوذ منا على سعة الاهتمام والجهد المرموق.

يقول أحد المفكرين: إذا كان لا بد من طرح مشروع نظري يرقى إلى مستوى الطموح التاريخي، فالمشروع الإنطولوجي هو الأحرى والأخلق... الأصالة... اجتهاد وجهاد... اجتهاد نظري وجهاد لترجمة النظرية إلى سلوك... إن العلاقة بين دوائر الوجود المختلفة لا تتضح بالخطابات السيارة والكتابات الواعدة، بل هي مخاض تراجيدي ينجزه أفراد قلائل في لحظات تاريخية نادرة عبر مسيرة الإنسانية الطويلة... والسؤال عن أصل الوجود، ليس هوساً أسطورياً، بل هو أرقى أنواع التفكير لأن كل ما هو عظيم يبدأ عظيماً بتعبير "هيدجر"... الفكر لا يصبح عظيماً إلا إذا كان منبثقاً من عمل وجودي، ولا ينتج نسقاً أو نظرية إلا إذا أنجز هذا العمل الإنطولوجي[1].

وقريب من ذلك تدليل أحد المفكرين بأهمية الظاهرة الدينية، وما تحمله من طبيعة خاصة تجعلها لا تخضع لقوانين المنطق الصوري، أو لمبادئ الهوية والتناقض والثالث المرفوع، إنها بالأحرى بنية وعي وجودية مثالية، والنظرة التاريخية المتأسسة على العدمية تؤكد بطلان المعقولية الدينية دون التمييز بين التيولوجيا والميتولوجيا، الدين أو الأثنية، القيمة وحكم القيمة، مع أن أشكال التيولوجيا، المقدس والرمزي محايثة في أكثر أشكال الحداثة والمعقولية[2].

ولقد اعتبر "شارل لالو" لقيمة الدينية ولية القيم وسيدتها، أي المشروعية العليا للقيم لأنها تعانق المطلق على صعيد الحب والحرية والعقل[3].

لكن أليس الإسلام ينطوي على مطلق الحب، ومطلق الارتقاء بالإرادة المتشوفة للنور الالهي، وبذلك تكون المنظومة القيمية الإسلامية تستحوذ مثلث المطلق.

---

[1] – ميخائيل عيد: مقال موسوم بعنوان من أجل انطولوجيا إسلامية، مجلة المعرفة، دمشق، العدد ٣٦٤ لعام ١٩٩٤ السنة ٣٢ ص١٨٣.

[2] – جميل قاسم: تاريخية، تاريخانية الإسلام، منشور في مجلة الاجتهاد عدد ٢٢ السنة ٦ لعام ١٩٩٤، ص٢١٤.

[3] – شارل لالو: الفن والأخلاق، ترجمة د. عادل العوا، دمشق، ٩٦٥، ص١٣.

وهذا ما أكده الدكتور حسن صعب لجهة المطلق الإرادي الفاعل في الإسلام يقول المذكور[٤]: الله خلق لأنه حرية، فهو حر بأن يخلق أو لا يخلق، لكنه اختار الخلق على اللاخلق، والإنسان المتخلق بأخلاق الله، كما يريد له الرسول أن يكون هو الإنسان الحر الخلاق، قال تعالى:" أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون" النحل / ١٧.

والله ليس هو الخالق الوحيد، بل الإنسان، قال تعالى: "تبارك الله أحسن الخالقين" المؤمنون/١٤.

ويتابع المذكور القول: وروح التجدد في الإسلام كما هي في كل دين تلك الروح تسمح للإنسان أن يستسيغ كل ما هو طبيعي، أي ما هو علمي وجديد، وأن يظل مع ذلك معبراً تعبيراً ذا معنى، وتأثيراً في فكر الإنسان وسلوكه، عما هو ما قبل الطبيعة وما بعدها، وهذا الالتقاء في الدين بين ما هو طبيعي، وما هو ما بعد طبيعي هو أيضاً التقاء ما بين الضرورة والحرية، وهو التقاء ديالكتيكي بين الطبيعي والله... الطبيعة ضرورة نظامية وصيرورة، والله حرية وخلق وكينونة، وبقدر ما يستمر الالتقاء في الدين بين الضرورة والحرية بقدر ما يظل معبراً عما هو كائن دون أن ينفصل عما هو صائر، وبقدر ما يتجدد في الدين أو خلاله هذا الالتقاء بقدر ما يبقى قاعدة الحوار اللانهائي بين الله والإنسان[٥].

وهذا هو المنهج الارتقائي الذي اكتشفه الدكتور محمد عبد الله دراز في الأخلاقية الإسلامية، فهذا المنهج يدفعنا بانبعاث تلقائي –وبمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر– دون حدود لبذل الجهد الخلاق المبدع effort creatrice من أجل ترسيخ الخبر، ثم بذل الوسع في جهد المدافعة effort eliminitioire لاقتلاع الأشواك الضارة[٦].

والمسلم يحقق هذه الحرية الإرادية المطلقة مستعيناً بهذا المخزون القيمي الروحي الرائع أو الرأسمال الرمزي الذي يتحفنا به القرآن، وفي مطلع ذلك حق الروح.

ويعود الفضل الكبير للدكتور "محمد أرغون" في إلقاء الضوء على ماهية هذا الحق، حق الروح، يقول المذكور:

الحقيقة الحقيقية هي برهة انبثاق داخل الروح تنشأ من المقارعة والمجابهة التي تخوضها الروح مع معطيات الواقع: la varité est le surgissement d,une evedence à l´interieur de l´esprit par la confronté de l,esprit avec les donnes du reel.

وهذه الروح كثيراً ما تناضل في الواقع والتاريخ وأحياناً ضدهما، والواقع يمكن أن يكون هزة أرضية تكتسح ما تشاء، ثم تتعدد وسائل وطرق المعالجة، فقد يقف شخص مكتوف الأيدي تجاه ذلك في حين ينبري الآخر لإنقاذ الجرحى، وعندئذ تكون الوسيلة الوحيدة الناجعة هي التي تتم

---

[٤] – د. حسن صعب: تحديث العقل العربي، بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٦٩، ص٩٠.

[٥] – المرجع السابق، ص٩٢.

[٦] – كتابه دستور الأخلاق في القرآن، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٦، ٩٨٥، ص٥٨٩ وما بعدها

ضمن إطار مسؤولية الروح[٧]، التي هي توجه إرادي وضميري وخلقي مجرد، ويعلو على كافة اعتبارات اللغة والفئة والقوم الخ...

وهذا ما أكده مارسيل موسى بأن الإنسان مقولة من مقولات الروح، والإسلام بحث أبداً عن هذه المسؤولية للروح والآيات الكريمة تتعدد حول ذلك[٨]:

- "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله..." التوبة / ١٠٥.
- "فاتقوا الله ما استطعتم..." التغابن / ١٦
- "فلا أقتحم العقبة..." البلد / ١١
- "وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ..." الحجرات / ١٥
- "السابقون السابقون..." الواقعة / ١٠
- "سارعوا إلى مغفرة من ربكم..." آل عمران / ١٣٣
- "يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه..." الانشقاق / ٦

لكن هذه الوثبة، وهذا الاستنفار والتجييش والتعبئة المستمرة ليس على الطريقة البروموسوسية[٩]، بل إن لكل شيء في الإسلام تقواه[١٠]، وهكذا كانت الضوابط والشكائم على الإرادة وتوترها، قال (ص): اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.

وعلى هذا الأساس فشأن الإسلام ليس شأن سيجور القائل: إن الإنسان يفخر بكل ما هو جهد[١١].

وليس شأنه شأن الشاعر: إذا أتت لم تنفع فضر فإنما يرجى الفتى كيما يضر وينفع.

الشأن الإسلامي هو اعتبار الجهد محكوماً بالفضيلة وشرط من شروطها.

وهذه هي حقيقة الوقف ووجهته التي يوليها، ومناطه الذي يبتغيه، ومرتجاه الذي ينشده، وهي في الوقت نفسه معنى الشرط الذي يشرطه الفقهاء بأن يكون الوقف قربة وطاعة لله[١٢].

---

[٧] – د. أرغون: الفكر الإسلامي، ص١٦٧.

[٨] – للمزيد في الموضوع يراجع د. الدراز، دستور الأخلاق في القرآن ص٥٨٩ وما بعدها.

[٩] – نسبة إلى الإله اليوناني بروموسيوس، والكناية هنا على المغامرة والإبداع وافتتاح حقول العمل والنجاح دون ضابط .

[١٠] – حتى اللباس له تقواه بدليل قول الله تعالى:" لباس التقوى".

[١١] – د. دراز: دستور الأخلاق في القرآن، ص٥٨٩.

[١٢] – الوقف في الشريعة الإسلامية، ص١٠. العيني: البناية في شرح الهداية ج٦، ص١٧٣. السيوطي: مطالب أولي النهي في شرح غاية المنتهى،ج٤،ص٢٨١، دمشق، المكتب الإسلامي ٩٦٠-٩٦١، ص٢٩٧.
أبو بكر أحمد بن عمر الخصاف: أحكام الأوقاف، القاهرة، مطبعة ديوان عموم الأوقاف الإسلامية، ٩٠٤، ص٣٢.

على هذه الأرضية الرصينة يمكن مقاربة رأي الشاطبي المدلل بأن المجتهد فيه من النبوة ولو لم يكن نبيا[١٣]، فهذه المقاربة البشرية للحقيقة النبوية تكشف عن حقيقة الارتقاء الروحي الإسلامي للإنسان ارتقاء يجعله يتخلق بأخلاق الله (حديث نبوي)، ويعانق ويقارب الحقيقة النبوية امتياحاً من نورها الذي لا ينضب، وإشعاعاً من مشكاتها، وهذا ما تؤكده العبارة القرآنية: نور على نور، النور البشري يرصنه، ويدعمه النور الإلهي، وبذلك تسمو الحقيقة الدينية بأنها سمو ومعراج للروح الإنسانية، وليست –حسب بعض التفسيرات– دكانة وقتامة وصراعات حادة في النفس الإنسانية ألجأت الإنسان –نجاة وخلاصا– لخلق الإله من أجل حل هذا الصراع[١٤].

واضح جداً أن إنفاق ما في ذات اليد قربة إلى الله ،إنما هو موقف فذ للإنسان لا يمكن حصر نتائجه على الحياة والمجتمع، وبالتالي فإن تأسيس هذا الحقل الحضاري للوقف–هو في جوهره ونواته النووية– موقف للروح، وإطلاق لطاقاتها، ووثبة من وثباتها وتجييش واستنفار لها في المغامرة الفذة الكبرى لمسألة الخير الإنساني، وهذا ما حدا الدكتور ابراهيم البيومي غانم للحديث عن الحيوية الذاتية للوقف[١٥].

وهذه الآلية لها انعكاساتها العميقة على النفس الإنسانية وصلابتها وتوطينها وترصينها وترسيخ مقوماتها وتطهيرها[١٦] من الشوائب، وأغراض الدنيا وغرائزها وترسباتها البهيمية، والأمر يدخل في صميم الصحة النفسية، وهذا هو مغزى قوله (ص): الخير نور في القلب وضياء في الوجه وقوة في الجسد، والشر حلكة في القلب وظلام في الوجه ووهن في البدن.

وفضلاً عن ذلك فالإنفاق في سبيل الله –لاسيما إذا كان منظماً– هو ركن في نظام شامل ومتكامل للتقدم والازدهار والنمو والتجدد الحضاري لأمتنا[١٧].

---

[١٣] – د. الدريني: خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم/ مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ٩٨٧، ص١٦.

[١٤] – د. برهان زريق: كتابه نصر حامد أبو زيد بين التفكير والتكفير، دمشق، دار النمير، دار معد، ط١، ٩٩٧، ص١٨.

[١٥] – مقاله الآنف الذكر، ص٩٧.

[١٦] – قارن نظرية التطهير الإسلامية القائمة على عمل الخير، وبين نظرية التطهير لأرسطو المسماة كارسيز، وأداتها الفن وتصعيداته، وهذا يؤكد مقولة ابن نبي بأن ما يميز الحضارة العربية الإسلامية هو الأخلاق، في حين أن الجمال هو مميز الحضارة الغربية.

[١٧] – مطلب التجدد الحضاري هو أحد مطالب المشروع الحضاري العمراني العربي راجع دراسات المؤتمر القومي العربي ووثائقه المؤسسة.

ولا غرو أن نطلق بتواضع على هذا التبرع عبارة عبادة مالية، فهو تحرير لنفس الواقف من شهوة التملك، مثله في ذلك مثل العتق وتحرير أرض المسجد وبنائه في سلطة الخلق أجمعين، وجعله خالصاً لله رب العالمين[١٨].

وهنالك سمة أخرى تجلل هذه الظاهرة، هي انبثاقها من صميم منظومتنا القيمية ورأسمالنا الرمزي، فهي نبتة تغارست ونمت في حضانة حضارتنا، ومشتل قيمنا الإسلامية، قال تعالى: "البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً..." الأعراف / ٥٨.

وبمعنى أصرح وأوضح فهذه الظاهرة تخلقت في رحم أعظم مغامرة للروح الإنسانية، وفي مناخ أفذ ملحمة وتوتر عقلي وضميري وروحي وأخلاقي هي التجربة النبوية[١٩] التأسيسية التدشينية لفلسفة حياتنا وجوهر وجودنا وقوامنا ورؤيتنا الحضارية وموقفنا من الحياة ونظرتنا إلى الوجود والأساس الوطيد لهويتنا ومنظومة قيمنا العربية الإسلامية.

ويمكن القول مع "مارسيل موسيه" إن الإسلام[٢٠] هو إرادة العيش المشترك من أجل إعطاء معنى للحياة، هذا المعنى هو الهاجس والقلق الذي يرزح ضمير كل مسلم رنواً وتشوفاً ونجاة لروحه وخلاصها الدنيوي والأخروي.

ذلك أن المسلم مدعو دائماً للتوجه إلى الله وتلبية ندائه والشعور بواجب الترقية والرفعة إلى مستوى أعلى في الوجود، فهو في حال توتر داخلي لحقوق الروح والتكامل الخلقي والنفسي "المنهج الأخلاقي الارتقائي في الإسلام".

والقرآن يملك فضاء غنياً لتشكل الإنسان، وتمكينه من اختراق كل الحدود، وتحديه للمواقف المادية وانبثاقه المتكرر، وتجدده المستمر واندماجه في تجربة الالهي وارتقائه إلى أشد المنعطفات التاريخية الحالكة.

على ضوء ما تقدم فنحن نفهم الوقف على أنه آلية لانطلاق مبادرات ومسؤوليات أخلاقية ضخمة، وافتتاح حقول اجتماعية وحضارية، أداة ذلك الإنسان القرآني الذي يملأ قلبه حب الله والناس، فهو مؤمن أولاً، وإنسان ثانياً ومواطن صالح ثالثاً، وهذا الإنسان هو ثمرة الثقافة العربية والإسلامية، والأنسنة التي خلقت فيه هذه الدوافع العميقة، وذودته بهذه القيم الرفيعة، إنها العقيدة الإسلامية في الله والإنسان والكون، والوعي الروحي العقيدي الأخلاقي فيه، وهذا الإشعاع الأكبر والحوار الاجتماعي الأصيل الذي يدفع المسلم للتمحور حول المجتمع والدولة، وهو في الوقت

---

[١٨] – د. ابراهيم البيومي غانم: المرجع السابق، ص١٠٢.

[١٩] – ليتذكر القارئ الحديث النبوي الشريف المؤسس لمبدأ الوقف.

[٢٠] – د. محمد أرغون: الفكر الإسلامي، ص١٦٧.

نفسه المهماز الذي يدفعه لاجتراح كل قرار عظمة واستشراف، ثم استشفاف المواقف الفذة من أجل تحقيق الشرط البشري والمشروطية الحضارية والشأن الإنساني العام.

هكذا يتأصل الجذر الفلسفي في الإسلام على ضوء المعادلة الآتية: خلق الله الإنسان من تراب ثم نفخ فيه من روحه، فهو بذلك يخضع لطبيعتين، ويقع تحت جاذبيتين وقطبين متناقضين، الأول يرفعه بالتسامي إلى معراج الحضرة الإلهية، والآخر يترسب، ويهبط به إلى مهابط البهيمية والغرائزية، وهنا يأتي دور العلم –من خلال نظرية الاستخلاف– للتطهير والتنقية والتعلية والسمو، وفي الوقت نفسه، فاللطف الالهي ذلل للإنسان وسخر له كل ما في الكون ليتمكن من عمارة الحياة، وأداة ذلك الأمانة التي يحملها والتي تأبت السماوات والأرض على حملها،[٢١] قال تعالى:" عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم، فينظر كيف تعملون..." الأعراف / ١٢٩.

ذلك أن الإنسان المسلم مسكون في الميثاق، ذلك التحالف: alliance الأبدي بين الله تعالى والجنس البشري بأن يمد الله ذلك الجنس بلطف ورعاية وحدب مقابل أن يعبده، قال تعالى:" وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين..." الأعراف / ١٧٢.

فأنا إذ أشهد في المحكمة أو أبيع أو أشتري ففي كل عمل أعمله أكون محكوماً بهذا التحالف تشهد علي جوارحي، واتجه بكل صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين.

والخلاصة كل شيء في الإسلام ينبع من كيان الفرد وذاته، وهذا ما دفعنا إلى اعتماد تسمية الميثاقية كظاهرة تحيط بالنسق القرآني...[٢٢]

هذه هي الأسس الفلسفية لاندراج الإنسان المسلم في الكون الأعظم وعلاقته مع المطلق (الذروة الوجودية)، وهي في الوقت نفسه أساس اندراجه في التاريخ الأرضي البشري (مقولة الإنسان أو الشخص البشري ومقولة الكون الاجتماعي)، وهذا هو فحوى الكتاب الصادر عن اليونسكو الموسوم بعنوان: philosophical foundation of human rights, unesco, pans, 1980.

وفي نظرنا إن هذا التأسيس هو التأسيس الفذ لكل مشروع حضاري عربي إسلامي واعداً محققاً للملكة الله ومملكة الإنسان ومملكة العروبة ومملكة الإسلام، وهذا هو مغزى التحدي والرهان الذي قدمه عالم الاجتماع فيبر في تعليله الصعود التاريخي لأوروبا بسبب الشرارة اللوثرية والكالفانية (الإصلاح الديني).

---

[٢١] – نقصد من ذلك قوله تعالى: "إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا"...

[٢٢] – كتابنا: الصحيفة دستور المدينة أول دستور لحقوق الإنسان، دمشق، دار معد، دار النمير، ٩٩٧، ط١، ص٢٥٧.

وفي هذا الصدد فنحن لا ننسى رأي مفكرنا الكبير مالك بن نبي في تأسيسه التاريخي والحضاري على الروحي، وتمثيله ملحمة التاريخ البشري بخط بياني صاعد بفعل القوى الروحية، ثم مراوحة هذا الخط واتجاهه بصورة مستقيمة بسبب الفاعل العقلي، وأخيراً هبوطه وترسبه بسبب الفعل البهيمي والغرائزي[٢٣].

وهذا العمل التاريخي الحضاري –بالحامل الروحي– بمثل نبل المبتغى وجلال الغاية وعلوية ومنتهى الإنسان إضافة إلى الضمان الإلهي الكوني في إطار البعد الحدثي الواقعي التطهري الذي تمثله ظاهرة الوقف.

إن إشراق نور الله ضروري للعالم في مخبره وللمزارع في حقله وللصانع في مصنعه، والإسلام هو ولي القيم، ولي الحقيقة، وإن تحريك مبادئ الوحي ضرورة فذة لتحريك قوانين التاريخ ونواميس الحياة وحركة المجتمعات، حيث يتم الالتحام بين القيم الجوهرية للقرآن وللإنسانية مع ضرورات الحياة، وعلى ضوء مصلحة الناس وبإرادتهم المنظمة، والإسلام ليس مجرد دين أو نظرية فلسفية، بل نظرية اجتماعية ونظرية اقتصادية وتنموية، ونظرية وطنية، ونظرية في الدولة، والمجتمع المدني، وهنالك ارتباط بين الوحي والأخلاق والإرادة والحرية والحدث اليومي، وهذا ما يجعل الفعل الوطني عبادة لأن كل شيء في الإسلام عبادة[٢٤].

وعلى هذا الأساس فالمصلحة بالمعنى الضيق لا تستطيع أن تؤسس المجتمع، بل المجتمع أوسع من ذلك بكثير، إنه وطن وأرض وإنسان وقيم وعدل وماض وحاضر ومستقبل ونظرة على الوجود ودستور أخلاقي وجمالي وقيمي وعملي، وكل ذلك يؤسس بمنهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع التنويه بأن الإسلام لا يستهين بالمصلحة ولا ينفر منها، والدولة في الإسلام هي دولة المصالح[٢٥].

والوقف أداة تحقيق هذه المصالح ، مصالح الناس في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الحياة اليومية، كما نحن على عهدنا في حضارتنا الممراع الوارفة الظل.

وهكذا تلتقي العبودية لله مع روح العروبة وروح الإسلام وروح المجتمع وروح الدولة وروح التنمية وروح التجدد والخيار الحضاري وروح النهضة.

وبذلك يساهم الإنسان القرآني المؤمن المتجذر حول الله في الاجتماع الإنساني والشأن الإنساني، وبحيث يتحقق التحالف الكوني بين الله والحب البشري، وهذه هي الشرارة الالهية، اللحظة الفلسفية الإسلامية التي تفجر كل شلال نور للإنسان والحياة والحضارة.

---

[٢٣] – كتابه شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، وعمر مسقاوي، ص١٨٦.

[٢٤] – د. فتحي الدريني: خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم، المرجع السابق، ٢١.

[٢٥] – د. محمد أحمد خلف الله: القرآن والدولة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، ٩٨١، ص١٤٠ وما بعدها.

هذا هو تأسيسنا الروحي للوقف، وتلك أرضيته الرصينة وحاضنته الإنسانية، والإنسان المسلم لا يحقق شفافيته ونقاءه إلا إذا تحرر في عملية الوقف لوجه الله تحرراً مطلقاً، متجرداً عن عرض الدنيا وزيفها وفسادها.

هذه جولة طويلة كان لابد منها لتأسيس الفاعل الديني في الحقل الحضاري، وإن كنا نرى تلخيص مجمل ما قلناه في الآتي:

١ – الدين والملك توأمان، والدين أصل، والسلطان حارس، ومالا أصل له مهدوم، وما لا حارس له فضائع.[٢٦]

ولقد أكد الغزالي ذلك في مظنة أخرى قال المذكور: نظام الدنيا ضروري في نظام الدين، ونظام الدين ضروري في الفوز بسعادة الآخرة.[٢٧]

وقريب من ذلك ما أكده ابن خلدون بأن الدنيا كلها وأحوالها عند الشارع مطية للآخرة، ومن فقد المطية فقد الوصول.[٢٨]

٢ – العقيدة أساس لها، غير أن هذه الحقيقة ليست عنصراً روحياً محضاً، بل يتسع مفهومها ليشمل مبادئ التكاليف، والغاية القصوى المحددة منها، بحيث جعلت كافة وجوه النشاط الحيوي للإنسان يؤول إلى أن يكون عبادة[٢٩].

٣ – ليست العقيدة أحاسيس وحقائق نفسية صرف، بل غايتها بناء الذات الإنسانية وتحقيق المبادئ والقيم المعنوية،[٣٠]والعنصر الخلقي والقيم العليا أساس للإعداد الذاتي للفرد من أجل إطلاق طاقاته كدوافع للنشاط الحيوي للدولة بجميع وجوهه،[٣١] ومن ثم فالمشروع الديني –حسب رأي الدكتور حسن حنفي– مشروع عمل، والوحي نظام مثالي للواقع، والعالم نظام طبيعي للمثال، وبالمقابل فكثيراً ما تنهض العقيدة النظرية في غياب الممارسة العملية، والعمل ليس نتيجة ضعف في التأمل، بل التأمل هو عين ضعف العمل[٣٢].

٤ – إن التشريع الإسلامي يعنى بالمنافع والمصالح، والإسلام يأخذ بمبدأ المنفعة، وينزل المال –باعتباره أصل المنافع ومصدرا" لها– منزلته من الاعتبار، ويقدره قدره، ويعتبره في تشريعه السياسي –سواء على المستوى الفردي أم الاجتماعي أم على مستوى الدولة – مقصداً أساسياً

---

[٢٦] – الإمام الغزالي: فاتحة العلوم، ص١١.

[٢٧] – الاقتصاد في الاعتقاد ص١٠٦.

[٢٨] – المقدمة، المرجع السابق، ص١٤٢ و ١٣٤.

[٢٩] – د. الدريني: خصائص التشريع الإسلامي، ص١١٥.

[٣٠] – د. دريني: المرجع السابق، ص١٦ و ٢٣.

[٣١] – ابن خلدون، المقدمة ص١٤٢.

[٣٢] – كتابه من العقيدة إلى الثورة، المقدمات النظرية، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، ٩٨٨، ط١، ص٦٤.

من المقاصد الخمسة الضرورية، بل عنصراً مقوماً للدولة، نقول إذ يقف الإسلام من مبدأ المنفعة هذا الموقف، يحدد مضمون المنفعة بضوابط وشروط، بحيث يجعله مغايراً لمفهوم المنفعة في مذهب بنتام[٣٣].

٥ – لقد حدث تحول كبير في مهمة العقيدة في الإسلام، إذ لم تعد تفهم على أنها دافع للسلوك وباعث للعمل، فضلاً عن أن هذا التحول طرأ على صعيد العقيدة، حيث تحول إلى طاعة للأوامر واجتناب للنواهي، كما حدث انفصال آخر بين العقيدة والمصلحة، فتحولت العقائد إلى بدائل عن المصالح، وهذا ما قاد إلى بقاء العقيدة دون شريعة، فضاعت الشريعة، ولم تغن العقيدة، وبالتالي فقد انتشر في عقيدتنا الفكر اللاهوتي، وغاب الفكر الإنساني المصلحي، فتأكدت محورية الله، وهامشية الإنسان[٣٤].

٦ – لقد صنف الأب كويترز –وهو من قساوسة بيرو في أمريكا اللاتينية– كتاباً وسمه بعنوان "لاهوت التحرر"، أعلن فيه أن الخلاص لا يكون بالتحرر من الخطيئة فقط، بل بالتحرر السياسي والاقتصادي، أي بالربط بين الخلاص، وبين حركة الإنسان، بين الإيمان والعمل السياسي، بين ملكوت الله وبناء العالم.

ولقد كانت الدعوة إلى لاهوت التحرر صورة متقدمة لمحاولات بعض رجال الكنيسة لتوسيع مجال الإيمان، بحيث يتجاوز الضمير إلى الواقع، وهو ما عبر عنه الأب كويترز بقوله: إن المحبة الإنجيلية تفرض على الكنيسة للانحياز إلى جانب التحرر في جميع ضروب الاضطهاد[٣٥].

وقبل كتاب كويترز كان بعض القسس، قد كتبوا عن لاهوت العمل، ولاهوت الأمل، ولاهوت التنمية، ثم توجت المسيرة بلاهوت التحرر[٣٦].

ثم جاء الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي ليصف هذه الدعوة في كتابه حوار الحضارات، بأنها انقلاب لاهوتي حول العقيدة إلى طريقة عمل، دفعت بأعداد متزايدة من المسيحيين إلى دروب جديدة، دروب النضال اليومي ضد الاضطهاد والاستغلال وتبعية الأجانب[٣٧].

وقبل غارودي وكويترز تكلم عالم الاجتماع الكبير فيبر عن دور الإصلاح الديني على يد اللوثرية والكالفانية في الثورة الصناعية، وقد بلغ الحماس لديه أنه تحدى الفاعل الاقتصادي، مؤكداً الدور الأول للإصلاح الديني في الانقلاب الاقتصادي.

---

[٣٣] – د. دريني: خصائص التشريع الإسلامي، ص١٧١.

[٣٤] – د. حنفي: من العقيدة إلى الثورة ص٦٢.

[٣٥] – فهمي الهويدي: أزمة الوعي الديني، صنعاء، دار الحكمة، ٩٨٨، ص٤١.

[٣٦] – المرجع السابق، ص٤٦.

[٣٧] – المرجع السابق، ص٤٧.

٧ – لقد رد أحدهم كل حركة أو سكنة في هذه الحياة إلى الفاعل الثقافي، وهذا ما دفعه إلى إطلاق تسمية ثقافة الحياة وثقافة الموت، الأولى تدفع إلى الحياة والتقدم والازدهار، والثانية إلى الانحطاط والتقهقر والرجعة والانكفاء.

ألم يسترخص أحد المسلمين الروح دون أن يمهل نفسه ليأكل ثمرات كانت في يده، فاندفع يقاتل حتى استشهد، أليس وراء ذلك منظومة قيمية دفعته إلى هذا الاستشهاد، ثم أليس وراء حركة الوقف التاريخية العمرانية الكبرى حامل روحي وثقافي، هو الشرارة التي فجرت برميل البارود في قلب شعبنا، فانطلق في كافة الدروب يبني الحياة بناء مجرداً عن كل نزعة عارضة أو طارئة.

نعتقد أن أية معالجة تجذيرية لمسألة الوقف، إنما يجب أن تأخذ بالحسبان منظومة القيم الإسلامية، تلك القيم التي يجب أن تستشرف فتستشف المعطيات المطروحة على عصرنا، وفي مقدمة ذلك المواطنة ومأسسة المجتمع والخير المشترك، وغير ذلك من المرتكزات التي تقيم المعاصرة والعمران المتقدم، وتساهم في الشأن الإنساني الشامل.

والخلاصة أن الإنسان هو حجر الزاوية في أي تقدم، وحجر الزاوية في الإنسان هو مقومه المعنوي: عقيدته ضميره، رأيه إرادته، والصلة المباشرة مع الله هي المدرسة الكبرى لإنماء عقل المسلم وضميره وإرادته، ولذلك فلا يوجد في الإسلام كهانه، وبالمقابل يقتصر دور السلطة الدينية في الإسلام على الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر، وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم[٣٨].

وقريب من ذلك ما أكده الدكتور وجيه كوثراني بأن الإسلام لا يطرح نفسه قسرياً، إنه يسمح بحال من التنوع، من خلال دخوله في صميم معتقدات الناس مع شعائرهم، وفي طقوسهم، في عاداتهم، في علاقاتهم بمجمل الظواهر الكونية الإنسانية السياسية الاجتماعية، وهذا ما يسمح فعلاً بوجود طاقة أكبر بكثير من طاقة ما يسمى أحزاب ونقابات وجمعيات تدافع عن حقوق الناس[٣٩].

لقد كانت العقيدة –ولا تزال– هي الأساس الذي يقوم عليه بناء الإسلام، فهي إن صلحت صلح الدين كله، وهي الروح للجسد، والدافع إلى الجهاد والعمل، ولقد عاشت على عهد الرعيل الأول حياة القلوب وروح الأعمال،[٤٠] حباً لله وشوقاً إليه... خوفاً منه ورجاء فيه، توكلاً عليه، واعتصاماً بحبله، يقيناً بأنه وحده الحسب (الكافي)، وأنه وحده الضار والنافع[٤١].

---

[٣٨] – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبدة، دراسة وتحقيق محمد عمارة، طبعة بيروت، ٩٧٢، ج٢، ص٢٨٧.

[٣٩] – مداخلته حول العلاقة بين العروبة والإسلام، مجلة الشؤون العربية، العدد ١٤، لعام ٩٨٢، ص٢٤١.

[٤٠] – د. علي محمد جريشة: المشروعية الإسلامية العليا، القاهرة، مكتبة وهبة، ٩٧٦، ط١، ص٥١.

[٤١] – المرجع السابق، ص٥٤.

ويندرج الإيمان الحق المتضمن عقيدة القلب وقول اللسان، وعمل الجوارح تحت لا إله إلا اله[٤٢].
ولم يكتف الفكر الإسلامي بتأصيل أهمية العقيدة، بل ذهب أبعد من ذلك إلى التحديد الإجرائي لتلك الأعمال المرتبطة بالعقيدة المنبثقة منها، وهي ما نسميها بالأعمال الإلهية، يقول مسكويه محدداً تلك الأعمال[٤٣]: وآخر المراتب في الفضيلة أن تكون أفعال الإنسان كلها أفعالاً إلهية، وهذه الأفعال هي خير محض، والفعل إذا كان خيراً محضاً، فليس يفعله من عمل من أجل شيء آخر غير الفعل نفسه، وذلك أن الخير المحض هو غاية متوخاة لذاتها، أي هو الأمر المطلوب المقصود لذاته...
والأمر الذي هو غاية في نهاية التعاسة لن يكون من أجل شيء آخر، فأفعال الإنسان إذا صارت كلها إلهية، فهي كلها إنما تصدر عن لبه وذاته الحقيقية التي هي عقله الإلهي الذي هو ذاته بالحقيقة.
وتزول وتتهدد سائر دواعي طباعه البدني بسائر عوارض النفسين البهيمتين وعوارض التخيل المتولد عنهما وعن دواعي نفسه الحسية، فلا يبقى حينئذ، إرادة ولا همة خارجان عن فعله من أجلهما، لكنه يفعل ما يفعله للإرادة ولا همة في سوى العقل، أي لا يكون غرضه في فعله غير ذات الفعل، وهذا هو سبيل الفعل الإلهي.
فهذه الحال هي آخر رغب الفضائل التي يتقبل فيها الإنسان أفعال المبدأ الأول خالق الكل عز وجل، أعني فيما يفعله لا يطلب به خطأ ولا مجازاة و لا عوضاً، ولا زيادة، لكن يكون فعله بعينه هو غرضه، أي ليس يفعله من أجل شيء آخر سوى ذات الفعل، ومعنى ذاته هو أن لا يفعل ما يفعله من أجل شيء غير فعله نفسه وذاته نفسها هي الفعل الإلهي نفسه.
وهكذا يفعل الباري تعالى لا من أجل شيء آخر خارج عنه، وذلك أن فعل الإنسان في هذه الحال يكون خبراً محضاً وحكمة محضة، فيبدأ بالفعل لنفس إظهار الفعل فقط لا لغاية أخرى يتوخاها بالفعل.
وهكذا فعل الله عز وجلّ الخاص به ليس هو على القصد الأول من أجل شيء خارج عن ذاته، أعني ليس ذلك من أجل سياسة الأشياء التي نحن ببعضها، لأنه لو كان كذلك لكانت أفعاله حينئذٍ إنما كانت وتكون وتتم بمشارفة الأمور التي من خارج ولتدبيرها وتدبير أحوالها واهتمامه بها.

---

[٤٢] – المرحوم الشيخ محمد شلتوت/ شيخ الجامع الأزهر: الإسلام عقيدة وشريعة، القاهرة، ٩٥٩، ص٢٩.
[٤٣] – أورد هذا النص د. محمد أركون: الإسلام، الأخلاق والسياسة، بيروت، مركز الإنماء القومي، ط١، ٩٩٠، ص١١٠.

وعلى هذا تكون الأشياء التي من خارج أسباباً وعللاً لأفعاله، وهذا شنيع قبيح تعالى الله عنه علواً كبيراً، لكن غايته عز وجل بالأشياء التي من خارج وفعله الذي يديرها به ويرفدها إنما هو القصد الثاني، إذ ليس يفعل ما يفعله من أجل الأشياء نفسها، لكن من أجل ذاته أيضاً، وذلك لأجل أن ذاته تفضل لذاتها لا من أجل المفضل، ولا من أجل شيء آخر، وهكذا سبيل الإنسان إذا بلغ الغاية القصوى في الإمكان من الاقتداء بالبارئ عز وجلّ وتكون أفعاله التي يفعلها على القصد الأول من أجل ذاته نفسها التي هي الفعل الإلهي ومن أجل الفعل نفسه، وان فعل فعلاً يرفد به غيره وينفعه به، فليس فعله ذلك على القصد الأول من أجل ذلك الغير، لكن يفعل بذلك الغير ما يفعله به بقصد ثان، وفعله ذلك من أجل ذاته بالقصد الأول، ومن أجل الفعل نفسه، أي لنفس الفضيلة ولنفس الخير، لأن فعله ذلك فضيلة وخير.

ففعله لنفس الفعل لا لاجتذاب منفعة ولا لدفع مضرة، ولا للتباهي وطلب الرياسة ومحبة الكرامة، فهذا هو غرض الفلسفة، ومنتهى السعادة، إلا أن الإنسان لا يصل إلى هذه الحال حتى تفنى إرادته كلها بحسب الأمور الخارجة، وتفنى العوارض النفسية، وتموت خواطره التي تكون عن العوارض، وتمتلئ شعورا" إلهيا" وهمة إلهية، وإنما يمتلئ من ذلك إذا صفا من الأمر الطبيعي البتة، ونفي منه نفياً كاملاً، ثم حينئذٍ يمتلئ معرفة إلهية وشوقاً إلهياً ويؤمن بالأمور الالهية، بما يتقرر في نفسه وفي ذاته التي هي الفعل كما تقرر.

ونعتقد أن هذا النص يمثل حجر الزاوية في الخير المشترك الإسلامي، ويسمه بالسمات الآتية:

١ – اتسام الفعل الإنساني الإلهي بمنتهى التجريد والشفافية والسمو على العوارض.

٢ – هذا الفعل ليس عملاً ذهنياً أو فعلاً نفسياً خالصاً، وإنما هو فعل يعانق ويتعامل مع الأشياء الإنسانية العيانية والمحسوسة لأن محبة الإنسان هي محبة الله.

٣ – يجب أن نميز في الفعل الإنساني الإلهي بين السبب والباعث، فالسبب أو محل العمل الإلهي ومادته هي الخدمة المحضة الإنسان للإنسان حتى للحيوان، لأن في كل كبد رطبة أجر، والمجال لا يتسع هنا للبسط في هذه المسألة، ويمكن للقارئ أن يتقراها في مظانها المتعددة من كتب الفقه والتاريخ والثقافة الإسلامية.

٤ – هذه الموضوعية والتجريد الذي يتسم به الفعل الإلهي الإنساني يجعل دائرته تتسع لتشمل كافة ثنايا وتضاعيف الحياة الإنسانية [٤٤] من الوجهة النفسية والعقلية والجسدية والروحية والخلفية والمالية.

٥ – الله المثل الأعلى، والإنسان مدعو للتخلق بأخلاق الله (حديث نبوي)، وأداته في ذلك أداة حركية وفاعلية، حية مبدعه خلافه، وهذه هي عين مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

[٤٤] – نقول الإنسانية وليس الإسلامية.

الذي منتهى أمره ومرتجاه اقتحام العقبة والمسارعة في فعل الخيرات والمسارعة إلى مغفرة من الله.

ومظهر هذه الدينامية حقيقتان: الجهد الخلاق Effort Creatrice، وجهد المدافعة Effort eliminitoire، أي زرع الغراس المفيدة واجتثاث الأشواك[٤٥].

[٤٥] – يراجع في ذلك مقولة الدراز السابقة الذكر.